

ظل الوعد

نوفيلا

صابرين الديب

S.D

ظل الوعد

نوفيلا

بقلم

صابرين الديب

تصميم غلاف وداخلي

صابرين الديب



جروب حلم-هن

ولنا مع الحرف حلم..

للانضمام للحلم

[جروب حلم-هن]

على الهامش

لا تحتمل الأنثى أن تكون ظلًا لأخرى..

لكن عندما تخضع لمصير تحتم عليها فيه الاختيار بين تضحية وقلب؛

تنطحن بين شِقيّ رُحى قرار لن تخرج منه بتحقيق نصر..

فأيما الاتجاهين سارت فيه!!

خسرت..

والنهاية واحدة.. والوجع متباين..

فإما أن تكون ظلها!!..

أو تفارق تاركة خلفها قلبها رهينة عشق..

حكم الإعدام نُفذ فيه.. ودون محاكمة!!

كوني أنتِ..

لن تصبحي هي مهما حاولتِ..

ولأنك أنتِ؛ فالمكسب باسمك..

والخسارة محسوبة عليكِ.. ولا سواكِ..

(١)

بداية تقليدية حد الروتين..

حد الملل..

حد نهاية شبه متوقعة رغم عثرات المسار المؤدي إليها..

***

كان السؤال:

لم تقدمين قلبك طواعية لمن لا يستحق؟!

والجواب:

الاستحقاق تحدده القلوب، ولأنها متخمة بمشاعر معصوبة البصر؛ فالخيار غالبا يجانب الصواب.. حتى لو تدخل المنطق والعقل في اللعبة وبكامل ثقله..

ولأنني أنثى ذابت في معشوق لم يكن لها منذ البداية فالعقوبة لي وحدي.. أتحملها برضاي أو جبرًا لا فارق.. لأنني سأنالها رغم الهروب، حد الألم..

***

الحياة لا تمنحنا الكثير من الخيارات في الغالب.. خاصة عندما يكون القلب أحد طرفي المعادلة، ضده كل منطق ومعقول بل ربما وصواب..

هي اختارت، لا.. لم لم تختر، هي دُفِعت لذاك المسار قسرًا، والإدعاء: أنه قرار بكل إرادة لم تمتلك ربعها



حتى، إرادة قلب يبرر لنفسه قربًا ليس من حقه، لن يكون من حقه، والأصوب ألا يحدث من الأساس..

الحياة كانت كريمة معها في السابق فاختارت عنها، لكن هذه المرة.. أمنتها على نفسها.. وقدرها وضع القرار بين يديها لتلقي به إلى قاع المجهول بموافقة يرفضها الكل إلا هي..

"أنا مش موافق"

توسلته بنبرة حزينة:

- وجيه!!

أشاح بذراعه كلها في حركة عنيفة متضايقة:

- أنا مش فاهم أنتِ بتفكري إزاي؟!.. بتحطي نفسك في موقف زي ده ليه؟

تمسكت بكفه تستكين إليه:

- ده اختياري وقراري، عاوزة أكون جنب بهي الدين.

لكنه لا يوافقها الرأي، ربما يعلم بخداعها، يتكهن أو يمتلك في عقله قرائنَ صغيرة تدل على ما تخفيه:

- بهي برده؟

أخفضت عينيها بألم:

- أيوة.

قد يدرك أنها على حق في أمر ما، فالقرب سيكون لأجله في العلن ولأجل آخر في الخفاء، وما خفي كان أعظم، بل أكثر ألمًا وأشد قسوة على صغيرة تلقي بنفسها في الجحيم لأجل ما تظنه صوابًا:

- برده مش موافق.

خالطت نبرتها الكسيرة حدة طفيفة:

- بس أنا موافقة، دي حياتي، ده اختياري أنا..

وزعق بغضب:

- وأنا أخوك الكبير وأدرى بمصحلتك منك ومن مشاعر جواك نتيجتها الوحيدة هتكون ألم فاكرة نفسك مش هتحسيه.

وبادلته الزعيق بزعيق، لكن صوتها الناعم خرج رغمًا عنها بائسًا:

- أنا هاتحمل المسئولية لوحدي.. مش هآجي أشتكي لك لما أتوجع.

رمقها بسخط:

- وأنتِ معتقدة إن ده السبب!!

قبل أن ترد وقبل أن يتعاظم الموقف وتزداد حدته لامست ذراعه كفًا ناعمة، تتحسس أوتاره المشدودة وعضلاته المتصلبة برفق حنون:

- وجيه.. سيبها تختار وتمشي في الطريق اللي قررت تمشي فيه، وجد مش صغيرة وعارفة مصلحتها كويس.

التفت لصاحبة اليد بهياج:

- يعني إيه أسيبها؟.. دي بترمي نفسها في جهنم وهي الوحيدة اللي هتتحرق.

عادت تربت على كتفه بحنو:

- مش يمكن هي فاهمة الموقف وحاساه أحسن مني ومنك!!.. هي أدرى باختيارها وبالحياة اللي هتعيشها.

هزرأسه بعنف رافض جعل شقيقته تخاطب الأخرى:



- صدقيني يا سها أنا عارفة أنا باعمل إيه وعشان مين!!..

واقتربت منه هو تستكين فوق صدره تشعره وتشعر معه بالأمان:

- وجيه!!.. أرجوك افهم موقفي حتى لو ضد رغبتك أو وجهة نظرك.. إديني فرصة أثبت لك إني صح، ولو اختياري كان غلط.. أنا هاتحمل المسئولية.

ضمها بقوة يقبل رأسها.. يشعر كأنه يلقي بقطعة منه وسط نيران لا يعلم مداها بل ويجهل سبب اشتعالها:

- أنا خايف عليكِ، خايف على قلبك ينكسر وأنتِ فاكرة الدنيا وردية.. وأنتِ معتقدة إنك ممكن تغيري اللي عدى وفات وتاخدي مكان شايفاه من حقك.



أغمضت عينيها بارتياح و"سها" تربت على كتفها من الخلف، هذه بداية جيدة، لين في موقفه سيوافق على الأغلب بعده..

نعم هي اختارت..

خطت بقدميها داخل الفخ، وما إن ينطبق عليها حتى يصبح الهروب مستحيلًا دون خسائر غير قابلة للترميم أو الإصلاح وهي تدرك..

***

عندما أخبروه أن الحب دائرة عذاب تطوف في خباياها دون رجوع لم يكترث، لأنها كانت هنا، سرقت القلب وخطفت الأنفاس والعقل أصبح سجين محياها..

وليته اكترث حينها، ربما خف الوجع، أو حتى استطاع تسكينه.. لكنه مضى في طريقه مسيرًا بإرادة قلبه متجاهلًا كل علامات الخطر وإشارات التحذير.

لم يتبقَ له منها سوى الذكرى وقطعة صغيرة ضعيفة يضمها بين ذراعيه كل ليلة يشتم فيها ما علق بها من رائحتها، ألم تقتطع منها؟!.. ألم تسكن بداخلها وتصبح هي الأقرب إليها؟!.. إذًا هي الأجمل، هي النور المتبقي وهي شعاع أمل يحيا من خلاله حتى الممات.

تأمل طفله بحنو امتزج باشتياق، ضمه لصدره ودفن أنفه في جسده الضئيل يسحب أنفاسًا عميقة تحمل عبقه، يئن خافقه، والدموع يحبسها بصلابة رجل خاض بحار الوجع وعاد منها حيًا دون أن تلتهمه أمواجها الثائرة أو يلامس قاعها المظلم..

نعم عاد، عاد بلا روح، بقايا مهملة متروكة في ركن لا يطأ عتباته أحدًا، حالك مخيف بارد وقاس.. حجب نفسه فيه واختار، اختار أن يكمل معها في خياله، علّه يستطيع البقاء حيًا والاستمرار حتى يحين اللقاء من جديد!!

غارق في شروده كعادة أيامه بعد الرحيل الذي لم يكن في حسبانه، وتنتزعه هي من ذاك الغرق بطوق نجاة بحنانها كما هي عادتها، طرقت بابه ولم يجبها، فتحته ولم يرها، همست باسمه وكأن في أذنيه وقرًا..

دنت بهدوء حزين تربت على كتفه، تجاوره وتجذب كفه الساكنة فوق ساقه تقبلها بحنان:

- أكرم!!..



وأخيرًا دخلت مجال بصره واخترقت حدود عقله التائه في ملكوت من تركته، ابتسمت بحزن:

- وبعدين يا ابني؟!

ابتسم بانكسار.. لم يبحث عن معنى آخر لكل ما يفعله، كل مواقفه، حياته، طعوم يمر بها ونكهات تعبر سرداب عقله المغلق أصبحت وحيدة المضمون.. الانكساروالياأس والانتظار..

تمتم بصوت واهن:

- وبعدين إيه يا أمي؟

ترددت، خطوة اتخذتها لم تكن محسوبة وقرارًا ليس من حقها وحدها، لكن الصمت في حرم وجعه قاتل، لن تتركه للذبول حتى النهاية والتي لن تكون بعيدة

بحاله هذه، ربتت على ركبته المضمومة أمامه فوق الفراش:

- هتبص لبكرة إمتى؟

لف وجهه يخفي عينيه، لطالما كانت الأعين فاضحة لكل ما نخفيه داخل أنفسنا من شجن أو حتى رفض وخوف وحب:

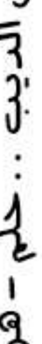
- أنا مش شايف بكرة عشان أبص له، هي دقايق وساعات وبتمر لحد ما تنتهي ونتقابل تاني.

شهقت بألم:

- بعد الشر عليك يا بني، ما تقولش كده يا أكرم..

وأكملت بشبه أنين:

- يا حبيبي ما توجعش قلبي عليك أكتر ما هو موجوع.



عاد إليها يقبل كفها بمواساة:

- سلامة قلبك يا حاجة.. ما تخافيش عليَّ أن كويس الحمد لله.

هل تفجر قنبلتها الآن!!.. دار سؤال بخلدها؟..

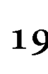
سيجن حتمًا، يغضب ويزمجر كأسد جريح بل وحبيس قفص الوحدة لكنها لن تسكت عما سكت عنه هو، لن تراقب ذبوله وضياعه وشروده مكتوفة الأيدي والأفكار حتى يضيع منها:

- أكرم.. أنا عندي ليك عروسة.

اتسعت عيناه في ذهول، ذهول تحول لغضب عارم ثم انقلب لهياج وهو ينتفض من فوق الفراش بصياح:

- عرووووسة؟!





وصياحه أيقظ الراقد بجواره في سكون، تعالى بكاؤه كمواء قطيطة وليدة مزقت نياط قلبه اشتياقًا لم يبادله هو نفس الشوق لها، اقترب منه غير مبالٍ بحديث أمه، رفعه إليه يضمه بحنو، يهدهده ويتشممه بحنين، التفت إليها بحزم صارم غاضب:

- هاعتبر نفسي ما سمعتش حاجة من الكلام ده يا أمي.

لكنها لم تكن لتتراجع أو تأبه لتهديده المبطن:

- طيب إعرف هي مين يمكن تغيررأيك!!

وكاد يصرخ ثانية:

- ماما!!



وعاجلته تنوي قطع الشك باليقين بل وذبح العرق ومراقبة نزفه علَّه يفيق من غيبوبته الاختيارية طيلة العام الماضي:

- وجد.

والصدمة كانت جلية على ملامحه وداخل سواد عينيه:

- مين!!

أسرعت تفند رفضه قبل أن يعلن عن مسوغاته:

- وجد يا أكرم.. مافيش أحسن ولا أحن منها، هي اللي هتخلي بالها من بهي، ومنك.. لا هتقسى عليه ولا عليك.. هي اللي هتقدر ترجعك تاني وكفاية إنها حتة منها.

وصرخ بالفعل حتى أن الطفل انتفض رغم دفء مكمنه فوق صدر أبيه:

- لاااااأ

تراجعت بحدة:

-لأ؟!

ناولها الصغير وانطلق خارجًا لا يلوي على شيء:

- أيوة لأ.. والموضوع ده ما يتفتحش تاني.

وهرب..

فالهروب خير وسيلة للحياة عندما تهاجمك أوجاعك مختلطة بأوجاع من يحبونك وينشدون لك عودة تعلم جيدًا أنها لن تحدث.. يباعدون بينك وبين نهاية

أنت اخترتها بنفسك وترفض غيرها.. ويأملون في تغيير لا تراه أنت ذا قيمة.

(٢)

"قبلت زواجها"

جملة تذوب في غرامها الحالمات الورديات، وتخشاها الرقيقات، وتعلم قيمتها الواقعيات.. أما هي الصامتة الخاضعة لقهر قلب مرت بكل تلك المراحل مجتمعة حتى استقرت على الواقعية كقرار نهائي وأخير..

فلا الوردية تغني ولا الرقة تشفع!!

علمت أنه رفضها، تجنبها لأيام طوال عندما كان يسلم صغيره إليها لتعتني به، لم يرفع عينيه في عينيها، تجاهل الحديث والكلمات والحضور وكل ما يمكن أن يحمل عنوان اقتراب..

وبقلبها خمنت المبرر!!..

والدته حدثته ولم تعجبه الفكرة فقرر التجاهل والبعد بكامل اختياره، ثم في لحظة ما عاد.. والتخمين هذه المرة علمها بالأمر بل وموافقتها.

أخبرته أمه أنها طلبت يد العروس، والعروس رحبت، تقطع عليه طريق الرجوع، تجبره على السير قدمًا، وتختار عنه ما هرب هو من مجابهته..

وبقدر عنف موقفه بقدر احتياجه بل وسكون طفله لخالته، تحمل رائحة أمه، عبقها.. حنانها ودفئها والركون إليها فطري كالحياة.

أحيانًا قد نتعجل القرارات، تتسارع خطواتنا تجاهها ثم نعود سيرًا في طريق الندم، وليته يجدي!!.. فحينها تنقلب الانتصارات لهزائم، والحروب يشتد أوجها

داخل الأرواح التي استسلمت لأمل لم يكن قدر تحمل الأماني والأحلام..

نعم تزوجته..

وقعت اسمها بجوار اسمه، أخفضت عينيها في خجل كما يقتضي موقفًا مشابهًا رغم حزن القلب، لا مظاهر فرح، لم ينظر إليها بل فقط تعانق جفناه كأنما ارتكب جرمًا.. ثم ابتسم بمجاملة بدت ظاهرة للغاية.. بارك لها بجمود لا روح فيه ثم رحل الكل عداها..

الآن هي في بيته، تحت سقف واحد معه، مع طفله الذي يشبهها لحد كبير، وفور إنغلاق الباب أصابتها متلازمة كل عروس في ليلة كهذه..

عرق بارد أغرق باطن كفيها، فركتهما بتوتر.. نظرات مشتتة لا مستودع لها ولا مستقر، جنبت عينيها إلا



موطئ قدميها.. وأنفاس تعالت بتلاحق شابه اللهاث، وقلب دقاته أعلنت العصيان على كل هدوء أو وتيرة منتظمة..

لم تشعر بوقع خطواته، الصغير نائم بهدوء في غرفته، تعنتَ هو برفض أن تأخذه أمه لهذه الليلة على الأقل.. أقسم أنه لن يبتعد عنه، ووافقته هي برحابة صدر وجِل تقتات عليه الظنون والمخاوف الغريزية لموقفها.

استدارت تبحث عنه بخجل، وجدته يستند لمقعد حجرة المعيشة عبر الغرفة بعيدًا عنها.. شارد في فكرة ما لم تحاول تخمينها لوجع تظنه قادم لا محالة..

واتخذ القرار باقتراب جعل نبضاتها تتسارع لحد مميت..



وقف على بعد خطوتين، تردد وارتبك.. خلل شعره بأصابعه، ضم قبضتيه بقوة وكان حاسمًا جامدًا حد البرود بكلماته:

- دي أوضتك يا وجد.. أنا هانام مع بهي.

ولو أبدت دهشة لكانت كاذبة..

توقعت شيئًا مماثلًا، رغم ما مرت به من مشاعر في اللحظات الماضية، تمتمت بارتباك:

- خليك أنت في أوضتك.. وخليني أنا مع بهي عشان لو احتاج حاجة.

بجموده جاوب كأنها لم تقل ما له قيمة:

- احتياجاته أنا عارفها وهاهتم بيها.. هو مش بيبعد عني.



أومات بصمت فأردف هاربًا من المكان تاركًا إياها لوحدتها:

- تصبحي على خير.

وأصبح إعلان الألم مباحًا..

هي من جنت ذاك على نفسها.. لذا فالنتيجة لن يتحملها سواها؛ القرار كان قرارها، والنهاية هي نهايتها.. والطريق اختصته لخطواتها التي تشبث بها القلب نائبًا عنها.

***

عائلة ليست بالكبيرة.. توأمتان تتشابهان في كل الصفات، كل الملامح وحتى نبرة الصوت ولون الخصلات الليلكية، غير أن إحداهما تميزت بطولها

المبهر، والأخرى قصرتها بتمرد لفارق أرادته بينها وبين نصفها الآخر..

دراسة متشابهة حتى العام الأول من الثانوية تفرقت بهما السبل ثم قررت الكبرى بدقيقتين كفارق زمني أن تلازم توأمتها لتعتني بها..

"وعد"

المتمردة، الجانحة، القوية والقائدة.. ورغم ذلك حازت من الرقة والجمال والأنوثة على الكثير، والأخرى لا تختلف عنها، غير أنها أكثر هدوءً وسكونًا وخجلًا..

وحدث أن قابلته للمرة الأولى!!

الطالب الجامعي النجيب بكلية الصيدلة، عامه الدراسي الأخير واستغلال لوقت الفراغ في متابعة المواد العلمية لطلبة الثانوية، وكانت هي منهم..

"وجد"

الرقيقة الهادئة الحالمة ذات الأماني الوردية وفكرة الفارس صاحب الجواد الأبيض والزهور، أصبح هو فارسها.. مالك أحلامها، وونيس خيالات مراهقتها..

غادرت سنوات الطفولة للتو، وفور الوصول لعتبات نضوج الأنثى بداخلها تعلقت به.. لكنه كان جادًا، ملتزمًا بعمله وفقط، وزاد ذلك من تربعه فوق عرش قلبها المبتدئ في عالم الغرام المتهجئ لأبجدياته بعسر..

ومر شهر وقررت المتمردة الانتقال للقسم العلمي مع شقيقتها بعد مشادة بين "وجد" الرقيقة وبين إحدى



زميلاتها، لتصبح هي حارسها الأمين، ودرع وقاية للناعمة من هجمات عالم الأنوثة الذي خطت إليه دون أن تنتبه أو تكترث..

ثم حدث اللقاء الأول، بين الحبيب السري والتوأم المشابه، واشتعلت الشرارة، ومات الوهج داخل عيني "وجد"..

باتت الأسئلة لا محل لها من الإعراب، فالفارس لم يعد فارسها رغم تشابه الملامح والصوت ولون الخصلات، الفارس تعلق بمن تحمل ملامحًا تشبهها متغاضيًا عنها، وتعلقت هي به دون أن تعلم عن زياراته لأحلام الصغيرة البريئة..

ولأنه شخص جاد دومًا، فالعلاقات اقتصرت على الدراسة، وانتهى العام، تخرج هو، ومر عام وآخر

ولحقت به في كليته حيث يعمل معيدًا وغادرت الأخرى لتتابع هوايتها الأثيرة وتستمر في الاهتمام بها.. لتدرس الأدب.

وعامين آخرين، تاهت فيهما "وجد" في لمعة عينيه البندقيتين، وغاب هو دون أن تدرك في تفاصيل "الوعد".. حتى انتهى العام الدراسي الثالث..

أصبح الأمر رسميًا، حلقته تزين إصبع شقيقتها، وسلاسل من نار تقيد بها قلبها الغر الذي ظن أن القرب قد يحدث فارقًا، لكنه أثبت أن البعد يترك أثرًا أعمق!!..

انزوى في ركن ضيق وحيدًا ينعي هوىً لم يكتب له أن يولد أو يحيا حتى ينال السعادة التي يتمناها ويستحقها..

انتهت دراسة توأمتها قبلها بعام، وتزوجت عقب انتهائها بأقل من شهر، غادرت لعش العشق تنهل من هوى من هي مغرمة به، واستمرت "وجد" بالكتمان وتمني السعادة لنصف روحها وساكنة رحم أمها إلى جوارها..

ويمر عام وآخر، تخرجت "وجد".. وعملت في أحد المشافي الحكومية استجابة لرقتها المتناهية وقلبها الرحب، تداوي الموجوعين وليت للقلوب دواء..

ثم أتى الصغير، نصفه منها.. من توأمتها، ونصفه من معشوق عشقه محرم كحرمة الفردوس على الشيطان، وتمت الفرحة به، لكن...

كل سعادة انكسرت، وكل قرب تلاشى، حتى أن النيران التهمت الأفئدة العليلة في الغرام..



وذلك كله بحادث مأساوي لسائق أرعن مخمور حول شقيقتها بسيارتها الصغيرة لمزيج مشتعل من الحديد واللحم والدم..

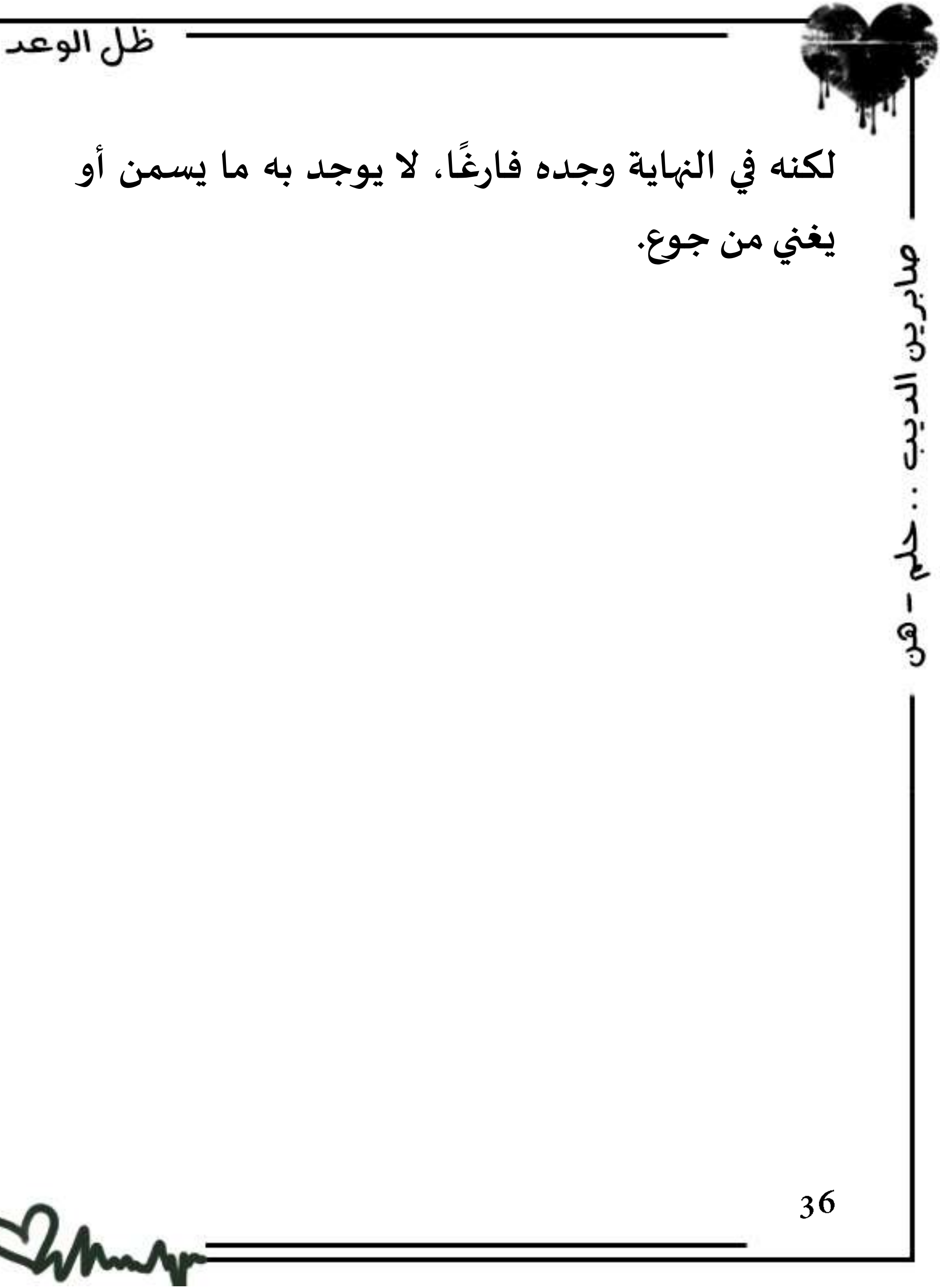
انهار العاشق..

بل كاد يتبعها حيث عالم الموتى، حيث لا رجوع، لا شعور، حيث لا آلام.. لكن القدر لم يكن رحيمًا به بما يكفي لينهي حياته معها، بل عاش واستمر والكرم تمثل في الذكرى والقطعة التي تركتها خلفها بعمر ستة أشهر.. "بهي الدين"..

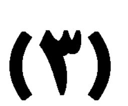
وها هي تحقق الحلم بعد رحيل نصفها الآخر، لكنه حلم منقوص، فلا هي تشعر بسعادة ولا هي اقتربت..

يغلب على قلبها شعور السارق المتلصص، من يعلم بغياب أهل المنزل عنه فاقتحمه ليسرق ما ليس له..





لكنه في النهاية وجده فارغًا، لا يوجد به ما يسمن أو يغني من جوع.



هل جربت أن تستيقظ يومًا من حلم لتغوص في آخر!!.. أو ربما على واقع كان مجرد قطعة من عالم الأحلام السابق!!..

هي فعلت، فتحت عينيها ورغم اختلاف المكان وظلمته وهدوئه النسبي إلا أنها كانت تشعر بالأمان، بسعادة مقترنة بذنب وهي من لم تقترف أية خطيئة.. بنبضة قلب لا مسوغ لها ولا سبب ليستدعيها سواها هي..

نهضت من فراشها ببطء، أنزلت قدميها للأرض وتمطت بشبه كسل.. كادت تبتسم، فبعد كل شيء، بعد رحيله وهروبه ووحدتها.. أصبح زوجها!!

حبيبها أصبح زوجها!!

نهضت في غير تصديق، تأملت ملامحها في المرآة، لا تختلف عمن أحب، لكنه كان من اختار، وهو لم يخترها هي.. بل اختارها له القدر، ورغم قسوة ما حدث لشقيقتها، رغم وجع قلبها وانشقاقه لنصفين أحدهما اندفن معها؛ فهي بالفعل اختيار القدر..

خرجت من الغرفة بعدما غيرت ملابسها وجمعت شعرها الطويل في عقصة جافة رسمية كما اعتادت، نظرت لباب غرفة الصغير المغلق وتنهدت ببقايا حزن.. وعدته ووعدت نفسها بالصبر والمحاولة..

ستحاول إسعاده، الاهتمام به، منحه قلبها الذي يستحقه حتى يسلم هو راياته في النهاية ويصبح ملكًا خالصًا لها..

حضرت فطورًا شهيًا، زينت مائدتها بما تعلم عنه وعن طعامه المفضل، وبتردد وعلى استحياء خطت نحو غرفته، طرقت بابها برفق ولم يأتها جواب، بل انفتح أمامها فجأة لتجده ببقايا نعاس وشعر مشعث..

وتضيع نبضة حمقاء من قلبها نتيجة ذاك القرب وحتى مظهره غير المرتب الذي منحها حميمية خاصة أخجلتها..

أخفضت عينيها وهمسها كان عسيرًا على السماع بينما هو يساوي شعره بأصابعه وعلى وجهه يبدو الإرهاق كأنه لم ينم إلا قبل دقائق:

- أنا حضرت الفطار.. آسفة إني صحيتك.

تأملها للحظات دون تركيز قبل أن يتمتم:



- معلش يا وعد أصلي نمت متأخر.. دقايق وأحصلك.

وكان الذبح للمرة الأولى..

هو لم ينطق باسمها، لم يعتذر.. بل حتى لم ينتبه.. ابتلعت لعابًا وهميًا داخل حلقها الجاف بعسر:

- وجد..

عقد حاجبيه دون فهم للحظات قبل أن تتسع عيناه قليلًا بشبه اعتذار:

- آسف.. أنا...

وتعثرت كلماته، كما تعلم عنه أكثر من أي شخص، كما تدرك أدق وأصغر تفاصيله عندما يشعر بخطئه ولا يجد ما يبرر به، يمرر أصابعه في خصلاته البنية، ينفخ بزفرة قصيرة متقطعة ويطرف بعينيه لمرتين

متتاليتين سريعتين قبل أن يبحث عن كلمات مناسبة أبدًا لا تكتمل..

أومأت بموافقة لا معنى لها وهربت من أمامه، تابعها لثوان قبل أن يعود للغرفة، يغلق بابها ويستند إليه بزفرة حارة طويلة هذه المرة:

- الله يسامحك يا أمي.. هي ذنبها إيه بس!!

ويعاتب، أو يبرر لبقايا ضمير اختيار كان يمكنه التحكم فيه لو رغب، لكنه استسلم وأطاع وخطا إلى حياته الجديدة بكامل إرادته حتى لو تجاهل أو تناسى ذلك، أو ربما أنكره!!..

***

مرشهران..



ويبقى الحال على ما هو عليه، وعلى المتضرر اللجوء لأحكام قلب لايزال غرًا غارقًا في وردية لا تمت للواقع بصلة..

أصبحت هي "الوعد".. لا، بل أصبحت ظلًا لها، تحمل وجهها، جسدها، خصلاتها، ونبرة صوتها.. تحمل كل ما يشبهها حتى اختتم هو الأمر بمناداتها باسمها طوال الوقت تقريبًا.. وعندما يتذكر يصبح حله الأمثل.. هروب.

شعرت بالفزع نتيجة الطرقات المتسارعة على باب غرفتها انتزعتها من شرودها برهبة، فتحته بسرعة لتجده أمامها وفي هذا التوقيت المتأخر في حالة يرثى لها يتلعثم بخوف:

- بهي.. مش عارف ماله!!

انتفضت مكانها وتبعته بسرعة نحو غرفته غير المرتبة، جلست إلى جوار الصغير تتحسس وجهه بحنو ورقة لتفاجئها حرارته المرتفعة بشدة، رفعت وجهها إليه بحزم:

- لازم نروح للدكتور حالًا..

كأنها أمه التي لم تلده، هو من دمها ومن دم من تحب، هو له بقايا السعادة ولها سلاح صبر، تتشبث به ويتعلق بها خاصة بعد أول حروف نطقه باسمها قبله هو.

***

"نقص مناعة خلقي"

ولم يفهما دون المزيد من التفاصيل، الرد كان جافًا مباشرًا صريحًا ومقتضبًا بعد أسبوع طويل وآلام لا



حصر لها، كان صادمًا واقعًا مرًا نهايته الموت إن لم يوجد علاج، وهو لن يتحمل أن يفقد آخر ما تبقى له منها، تحشرجت نبرته بوجع مكتوم وازى اتساع عينيها دون تصديق:

- يعني إيه يا دكتور!!..

أجابه الطبيب بعملية:

- طفرة بتحصل في المواليد بتأدي لحدوث نقص مناعة، وبالتالي مرض مستمروأعراض ما بتنتهيش.

سارعت هي:

- والعلاج!!

رفع الرجل رأسه مجيبًا بخبرة:

- زرع خلايا جذعية.

ومن ملامحهما المصدومة بألم أوضح مستطردًا:

- هنزرع نخاع، من الأب أو الأم يعوض الجسم ويخليه يقدر يقاوم الأمراض.

تبادلا النظرات قبل أن يرد هو متشبثًا بأذيال الأمل:

- طيب أنا والده، إمتى ممكن نبتدي.

ابتسم الطبيب لأول مرة:

- مش بسرعة كده يا دكتور أكرم.. في اختبارات كتير لازم نعملها الأول عشان نتأكد إن حضرتك أو المدام صالحين للمنح.

وتفلتت كلماته لتزيدها حرجًا ووجعًا:

- هي مش مامته.

وأخفضت وجهها بتمتمة خافتة تداري بها رد فعله:



- أنا خالته.. لو ممكن أنفع!!

عقد الجالس أمامها حاجبيه بتساؤل:

- وفين الأم؟!

رد هو بشجن:

- الله يرحمها.

أومأ برأسه في تفهم..

بعدها توالت الأحداث بتسارع يسبب اللهاث، ليصل لنهاية أكثر رعبًا.. هو كمانح لا يتوافق مع طفله، وخالته توأمة أمه كذلك، وأسقط في يده لتفاجئه هي بسؤال الطبيب:

- طيب لوله أخ!!

عقد الرجل جبينه باندهاش:



- له أخ وساكتين!!.. ممكن جدًا، هو فين؟

رفعت عينيها إليه بخجل تقبله هو بتساؤل شبه مستنكر زاد من أنين قلبها:

- لا هو مالوش، بس أقصد لو في بيبي وكده ممكن!!

هز الطبيب يديه وكتفيه برحابة وتفهم:

- كده هيكون مش مؤكد ويمكن مستحيل، لأن الأم مختلفة والـDNA مش واحد.

ردت بثقة:

- هي كانت توأمتي.

فكر للحظات قبل أن ينظر إليها باستفسار:

- توأم متماثل!!

أومأت بموافقة، والصامت لسانه محجوب بين فكيه لا يكاد يملك القدرة على تحريكه:

- طيب كده ممكن نعمل لك شوية فحوصات ونتأكد من تشابه الحامض النووي ووقتها نقول إن في أمل.

توجهت نحوه بنظرة استقبلها هو بحيرة، عادت تبتعد بعينيها في صمت، تفكر في أي مأزق أوقعت نفسها فيه!!..

بأي شيء ضحت!!..

بكرامة أنثى، بقلب نابض، بجسد تمنحه إياه كوعاء لطفل إنقاذًا لمن يحب في هذه الدنيا!!..

سبَّت نفسها وعقلها المغيب في تفاصيل عشقه، كادت تبكي لكنها حبست دموعها حتى أثقلت أهدابها فسالت

تبلل وسادتها متحدية صلابتها كما في كل ليلة يصاحبها فيها صقيع الوحدة وظلام انكسار النفس.

(٤)

"أنت إزاي تفكر في موضوع زي ده يا أكرم!!"

وتبًا لك "وجيه".. بل ألف تبٍ لكم جميعًا، لا تسألونه هو بل اسألوا أنفسكم، كيف لا تتفهمونه؟!.. لا تقدرون حزنه الرابض بقلبه؟!.. تتجاهلون عشقه الذي لا ينتهي حتى لو ماتت معشوقته وتركته وحيدًا في دنيا كانت هي فيها الحياة!!..

- بافكر إزاي يا وجيه؟!.. أنا قلت إيه غلط؟

زم الأخ الأكبر شفتيه بغضب مكبوت:

- ممكن أفهم أنت اتجوزت وجد ليه؟

وتلعثم وارتبك.. أجبرته ظروف!!.. تعلق صغير بشبيهة أمه!!.. أجبره ضعف وخنوع وربما أم تخشى عليه فوضعته في مواجهة المدفع وتركت الحرية لآخرين ليضغطوا الزناد!!.. أغمض عينيه وقلبه يشاركه تباطؤ الأفكار بالخفقات:

- احتياج يمكن.. مش عارف!!

وحاول الأخ التماسك، يعلم كم كان عاشقًا لطفلته التي رحلت وتركته متخبطًا تائهًا من بعدها، لكن أن يظلم توأمتها بزواج ليس بزواج ويطلق عليه لفظة "احتياج".. هذا كثير:

- طيب وهي!!.. ما فكرتش فيها؟.. في احتياجها ونفسيتها وأنت بتتصرف معاها بالطريقة دي!!..



وما حدث أن الحمل فاض والنابض امتلأ حد زعيق يعلو ببطء مع كل كلمة:

- أعمل إيه يعني يا وجيه؟.. أنا تعبت.. رفضت وبعدت وانعزلت، دخلت حياة مش حر التصرف فيها ولا حتى كنت عاوزها من البداية..

وسكن لثوان يستجمع حروفه.. يجتر أحزانه، ويخرس ضميره المؤنب:

- وكمان عارف ومتأكد إني باظلمها معايا.. بس عاوزك تفتكر حاجة واحدة بس، هي وافقت على الحياة دي، يبقى تتحمل جزء من ذنب الوجع اللي إحنا فيه.

وهنا لديه حق حتى أن أخيها صمت للحظات هو الآخر ورد بعدها بغلظة:

- الوجع ده أنت اللي اتسببت فيه، كونها وافقت تخلي بالها من ابن أختها وتراعيه ده مش ذنب، دي انسانية واهتمام المفروض تشكرها الباقي من عمرك عليه، مش تجرحها وتهينها وفي النهاية تفكر فيها بالطريقة دي..

ومال نحوه باستنكار مصدوم:

- تلقيح صناعي يا أكرم!!.. للدرجة دي؟.. وأختي فيرجن؟.. أنت بتفكر إزاي فهمني؟!.. وجاي لأخوها الدكتور عشان يتمم لك المهمة اللي مش عاوز....

قطع كلماته قبل أن يخطئ بالمزيد، في حقها وحق نفسه وحق ذاك الرجل الذي لا يسبب لصغيرته سوى الألم حتى لو كان هذا هو اختيارها، ابتعد عنه بحسم:

- عاوز أخ لابنك يا أكرم!!..

ولم يكن يتساءل بل يقر واقعًا، رمقه بعدها بنظرة صارمة:

- أنت عارف الحمل بيحصل إزاي.

وخرج من المكان بخطوات حانقة، دون أن يعلم أنها سمعت كل حرف بدموعها التي أصبحت قهرًا رفيقة جفنيها المثقلين بهموم القلب، وأنها كانت موافقة فقط لأجل الصغير..

ولأجله!!..

***

الاستبدال لم يكن اختياره.. بل كان طريقًا سار فيه دون وعي ودون أن يصل للنهاية.. بل حتى دون أن يفكر في واحدة محددة!!

وأمام المفترق وجد خياران.. والخيار صعب فكلاهما علقم، وأحلاهما مر.. فقدان بقايا ذكرى، أو اعتصار قلب لا يخصه حتى آخر نبض..

كلاهما مؤلم.. موجع، لكنها هي من اختارت بقرار وموافقة وبدء تنفيذ لتختصر نصف المسافة بينهما أو ربما ثلاثة أرباعها.. وكالعادة، كان مسيرًا مجبرًا.. أو هكذا أقنع ضميره ليخمده دقائق الوصال!!

دلف لحجرة نومها بتردد، صغيره في أحضان أمه لهذه الليلة، أمه التي استغربت وجوده بحقيقة أو إدعاء



جهل فلا فارق.. وقف أمامها بسكون يتأمل ملامحها التي طالما عشق مثيلتها من قبل، خصلاتها المعقوصة بحزم جاف، منامتها القطنية الفضفاضة وعينيها المتسائلتين:

- أنا محتاجه يا وجد.

تهدل كتفاها، هو يطلبها كزوجة فعلية إذًا، خضع للظروف من جديد، وبعد رفض أخيها لم يجد بدًا من أن يتمم زواجه منها بعد أكثر من شهرين ونصف عاشت خلالهما في كنفه، بين جدران منزله.. في حال لا يختلف كثيرًا عن ضيفة..

مع صمتها اقترب، وقف أمامها بخنوع:

- هو اللي باقي لي منها..



كادت تسبه، تلعنه وتلعن حرقة قلبها الأحمق الذي تدله في حب ذاك الأناني، هو حتى لا يتقرب منها بود، بكلمة طيبة كحال الأزواج.. بل يخبرها عن مهمة عليها وعليه القيام بها لإنقاذ طفله، بروتينية وجمود وكفى..

وجدته يغمض عينيه، يقترب أكثر، وسمعت التمتمة التي كسرتها.. بل حولتها لشظايا لا يمكن جمعها:

- وعد أنا...

تتعثر أحرفه كعادته، بل تتوقف بعرض حلقه رافضة التشكل ليستعيض عنها بفعل، وفعله كان دنو أكبر.. بل لمسة وزادت حد ذراع امتد نحو خصر وضمة لطالما تاقت إليها وتجاهلها هو..

وبينما يهمس في أذنها باعتذاراته وأسفه وشفتاه تتلمسان نبضها الهادر بقسوة.. كان قلبها يبكي وجسدها يستسلم لسطوته بتمتمة لم تتجاوز شفتيها:

- اسمي وجد!!

وعندها اكتشفت أنه يدرك تمامًا من تلك التي بين ذراعيه، هو يعتذر لمعشوقته الراحلة عما يظنه غدرًا أو ربما خيانة، يخبرها بهمس خافت يصل لأذني الساكنة أحضانه دون أن يعي مقدار ما يسببه من وجع:

- أنا آسف..

- أنا بحبك يا وعد..

- عشان ابننا صدقيني..

- بس عشانه..

- عشان آخر ذكرى باقية لي منك..

وهذه المرة لم يخطئ في اسمها وحسب.. هذه المرة لم ينسَ أو يتهرب باعتذار غير مسموع.. هذه المرة لم يكتفِ بذبحها؛ بل قطع منها الوتين.

***

انتهت المهمة الثقيلة على نفسه وعليها..

يقف أسفل الماء محاولًا خنق صوت ضميره الذي يعذبه يحاول إرساله في غيبوبة مؤقتة حتى يصل لمبتغاه.. لغاية احتقر وسيلة الوصول إليها ولو كان بموافقتها.. بل احتقر نفسه ووبخها بعنف..

رفع عينيه نحو باب الحمام، دموعه عصية ترفض الخضوع لسلطانه بالهطول، بالاختلاط بماء المرش علَّها تذهب معها سدىً.. ربما تمنحه بعض راحة، أو حتى تسكين ألم..

"سامحيني يا وعد"

وأغلقهما معتصرًا جفنيه بقسوة:

- قولي لها ما تزعلش مني..

ولكم الجداروانعكس المردود فوق أصابعه المضمومة بوجع:

- كنت عاوز أحافظ عليها.. ماكنتش عاوز آخد منها حاجة غصب عنها، بس.. بس...

وتقطعت أنفاسه وتاه الكلام، هز رأسه يواسي نفسه ويواسيها دون أن تراه أو حتى تستمع إليه كعادته منذ تزوجها.. يغضبها، يحزنها.. يتلمس وسادتها المبللة باحثًا عن آثار دموعها..

هو ليس ذلك القاسي اللامبالي!!..

لا هو يكترث لأقل الأمور، يعلم أنها لا تحبه، وافقت لخاطر طفله.. تلك القطعة التي تبقت لهما من توأمتها الراحلة، لكن أن ينتزع منها برائتها ويستغل عقدًا شرعيًا يستبيح به وصالها وجسدها لغاية قد تكون هي الأسمى فذاك حقارة لا يستسيغها..

نبل الغاية لا يبرر أبدًا الطريق الذي يسعى فيه للوصول إليها.. وهو يدرك، ويعلم أنها تدرك.. وليته



يمتلك قدرة على اعتذار.. لكن الكلمات لا تجدي، ولا تنفع!!..

وعاد يهز رأسه بشجن مستعيدًا ذكرى الدقائق الماضية، عندما انتهى بلهاث وانتفض من الفراش بعجالة متمتمًا بكلمات غير مفهومة دون أن يمنحها الحق في قرب وتفهم ما بعد تلك اللحظات الحميمية التي خاضتها للمرة الأولى..

دون أن يساندها أو يهتم بامرأته كما فعل مع معشوقته من قبل، دون أن يراعي حاجتها للاحتواء أو الدفء والاطمئنان:

- سامحيني يا وعدي.. مش قادر أكون مع حد غيرك، بس غصب عني، أنتِ عارفة ده مش كده!!

وكأنه على وشك الجنون أو الإصابة بلوثة..

- بأذيها معايا، باجرحها، باخد منها حاجة مش من حقي..

واستند بجبينه للجدار البارد:

- بس ابني آخر ذكرى منك.. مش هاتحمل يضيع مني.

أغلق الصنبور وجفف جسده، لف خصره بمنشفة عريضة وخرج إليها.. هاله مرآها!!..

منكمشة على نفسها أسفل غطاء أحكمته على جسدها بشدة، جفناها متعانقان بقوة، والدموع الصامتة تسيل من بينهما رغمًا عنها لتبث شكواها لوسادتها وكأنما أصبحت عادة لا أكثر..

زم شفتيه بضيق، توجه نحو الخزانة وأخرج منها ملابسه، ارتداها بسرعة واقترب من الفراش، فتح فمه يناديها لكن الصمت هو جواب لسانه المتجمد داخل حلقه..

استدعاه وابتهل منه كلمة ورفض.. جاورها ومد يده بتردد ليمنح خصلاتها الطويلة المستريحة فوق الوسادة تربيتة هادئة، تأملها لثوان وابتسم متذكرًا حبيبته التي كانت دومًا تقصر شعرها رغم رفضه..

انتزع نفسه من ذكرياته التي تهاجمه بعنف دائم.. مال نحو رأسها بقبلة خافتة وهمسة كانت أقصى ما استطاع نطقه:

- آسف.

ورحل بخطوات متعجلة.. هاربة، ومن خلف بابها سمع انهيارها ونشيجها الذي أوجع قلبه..

لقد أطلقت لأنين فؤادها وروحها العنان، وكان هو حاضرًا ليشهد اللحظة، ويعيشها معها ولو من وراء حجاب.

(٥)

لقد رحل..

ببساطة ودون أن يبالي أو يهتم أو يتودد.. رحل!!..

ودت لو شتمته، لكن كل السباب كان موجهًا إلى ذاتها، لقد حصل على ما أراد، وما منحت هي عن طيب خاطر ودون أن يفكر هو به حتى منذ البداية..

هي اقترحت، هي خطت الخطوة الأولى، هي قدمت نفسها على طبق من وجع، من نزف قلب، من أنات روحها المعذبة..

ومن هو ليرفض!!..

جعلت من نفسها وسيلة والمبرر غالٍ، طمحت لقرب مسبباته هامة، امتهنت جسدها وقلبها أسفل قدميه وهو!!...

لا يدرك مقدار عشقها له، ولا حتى كرامة وكبرياء الأنثى التي أخضعت عنادها لرجل هو مالك الفؤاد..

نهضت من الفراش بعد موجة هادرة من أنين كيانها كله بكل ذراته، من سيل دموع أغرقت في طريقها أخضر خافقها ويابسه، من نحيب وشهقات كادت تجتث من جسدها الروح..

وأسفل القطرات الباردة تخلصت من أثر لمساته التي لطالما تمنتها، حكت جلدها بقسوة آلمتها، بل كادت تدميه.. وعندما خرجت كانت هناك فكرة تولد..

وشيء ما يموت ببطء في المقابل..

شيء ما يؤرق أحلامها التي أضحت كوابيسًا مصدرها جوع نهم لخوف يقتات على أمانيها الوردية..

استقرت متكومة فوق مقعد مقابل لنافذة الغرفة تتطلع للقمر من خلف زجاجها.. تشرد في حالها وفيما قامت به..

هل كان ذلك صحيحًا؟!

هل الأمر يستحق!!

هو.. ابنه وابن أختها.. غرامه الذي تملك منها ودون أن يعلم عنه مثقال ذرة!!..

سمعت صوت مفتاحه في الباب لكنها لم تتحرك!!..

هل عليها أن تنتفض؟.. تذهب إليه؟.. تقابله كأي زوجة مخلصة وفية ومثالية؟..

ابتسمت ساخرة وضمت ركبتيها لصدرها تحيطهما بذراعيها وتستند إليهما بذقنها في سكون انتظار..

انتظار ظهوره بعد غياب لم يطول لتلك الدرجة.. ربما عاد بالصغير لا غير..

عندما دخل للغرفة وجدها على ذلك الوضع، توقف للحظات بتفكير.. ثم اقترب، أمام مقعدها وقف على إحدى ركبتيه، تأملها ولم تحِد هي بنظراتها إليه:

- وجد..

ناداها فأغمضت عينيها:



- أنا بجد آسف..

اعتصرت عيناها المغمضتين أكثر فأردف بتأمل:

-وجد أنتِ أنبل إنسانة شفتها في حياتي..

وعادت السخرية بداخلها دون رد، ازدرد ريقه بعسر:

- أنتِ ضحيتِ بكتير قوي عشان بهي.. عشان اللي باقي لنا منها.. ضحيتِ بـ...

وكان لابد أن توقف لسانه الأحمق والذي تحرر بطلاقة في الوقت غير المناسب ليعلن بكلماته ميلاد وجع جديد، مدت أناملها لتستقر فوق شفتيه بهمس شاحب:

- كفاية أرجوك.. أنت بتوجعني، كلامك بيوجعني أكتر..



وعادت تبتعد:

- أرجوك ما تتكلمش.

نظر في عينيها وتولت عيناه الحديث هذه المرة، انهالت اعتذاراته الصامتة فلفت وجهها بعيدًا عنه:

- وجد!!..

نهضت واقفة تحاول الهروب من مكان وجوده فنهض بالمقابل، يمسك بكفها يمنعها فرارًا تنشده.. بل قلبها يطمح إليه:

- أنا مش عارف أقول إيه..

كادت تصرخ فيه، تضربه، تسبه وتلعنه وتلعن نفسها والساكن بين جنبيها يئن شوقًا ويموت عشقًا:



- ما تقولش حاجة من فضلك يا أكرم.. كفاية قوي كده.

شعر بعجز، ترك معصمها ببطء متردد وتنهد بيأس:

- صدقيني أنا آسف..

ولم تمتلك سوى الدموع كرد، واحتار هو وضميره يعنفه بغلظة:

- وجد.. أرجوك ما تبكيش، أنا.. أنا... أنا غلطان.

وصرخت فيه، لم تستطع التحمل أكثر وكان لابد من حشرجة صوت تشعل النيران:

- كفاية بقى، أنت إيه!!.. ما بتحسش؟

تراجع خطوة بصدمة وتقدمتها هي بجرأة قلب لم يعد الصمت له حلًا قابلًا للتنفيذ:

- أيوة ما بتحسش، ما بتفهمش، حتى ما بتشوفش.. كل حاجة عملتها كان عشان خاطر...

وتوقفت الكلمات، انقطعت الأنفاس وأوشكت فضيحة على الحدوث لكنها لاحقتها بصمت قبل أن ترمقه بنظرة ساخطة حزينة قابلها هو بعدم فهم:

- أنا تعبانة وعاوزة أنام.. تصبح على خير.

وكأن الجنون تفجر فجأة وتلاشى فجأة.. وهو حائر في المنتصف، فلا هو يجاريه، ولا هو يداويه.. همس وهي تتجه نحو الفراش:

- طيب.. أنام هنا ولا أرجع أوضة بهي!!

كانت تجذب الغطاء فتجمدت للحظة قبل أن تجيبه بإدعاء لامبالاة:

- اللي يريحك.

وما يريحه ويعتقد أنه الأفضل بل ويريحها كذلك هو قرب، هو اعتذروهذا أقصى ما يملكه..

لهذا فلتسير مركب حياتهما معًا على هدي الفطرة..

وانتهى..

مرا بليلة طويلة انتهت بإشراقة شمس على جفون لم يطلها نعاس.. ولا تحمل لهما دفء أمل..

***

لم يمر الكثير من الوقت، شهران أو أقل وخرجت تحمل في يدها اختبارًا صادف حضوره وقتها ليراه..

تطلع إليه بتساؤل ردها عليه منح، ألقى نظرة على الشريط بين أنامله وهمس بارتباك:

- حامل!!

والجواب بقلبها:

"نعم.. تمت المهمة بنجاح سيد أكرم"

ولسانها استعاض عنه بتمتمة خافتة:

- أيوة.

تردد وارتباكه في ازدياد:

- مبروك..

واقترب، سكنت واستقبلت قبلته على جبينها بجمود..

تراجع ينظر في عينيها باعتذار صامت كما اعتادت منه طيلة الأيام الماضية..

وعاد الوقت تتسابق ثوانيه مع دقائقه بل ساعاته وأيامه.. اقتربت من شهرها السادس، كبرت بطنها بطفل من حبيب اختاره القلب فأصبح هو ذنبه وإثمه غير المغفور..

كبرت بجنين مجرد وجوده بين أحشائها كأنما منح والده صك التحرر فتباعد عنها وكأنها ليست زوجته.. بل وكأن المهمة تمت بالفعل وما سعى إليه حصل عليه وهذا كاف.

كبرت تحت ناظريه، ورغم كل شي فهو طفله، يتابع نموه بعينيه، وقلبه يعانده بميلاد فرحة يستكثرها عليه وعلى نفسه المثقلة بهموم الفراق.

ولأنه تباعد.. ولأنها قد اكتفت؛ فلم تبالي.. مهما قدمت، مهما منحت وأعطت ودهست كرامتها وكبرياء أنوثتها فلا فارق.. إذًا وبناءً على المعطيات الممنوحة إليها.. ليكن ما يكون.



(٦)

تبقى شهران ونيف..

سيصبح أبًا من جديد، ورغم كل شيء، رغم الأسباب والمبررات والدواعي التي خطا لتلك الحياة لأجلها فهو يشعر نوعًا ما بسعادة..

سعادة تولدت من صغير تضمه أحشاء من تحمل لقب زوجته، زوجة على ورق.. على فراش بدوام مؤقت انتهى عندما وجد هو بداخلها.. زوجة على حد الكفاية..

تأملها حال نومها كما يفعل كل يوم، رقة ملامحها وبشرتها الناعمة، تلك النمشات المتناثرة بتباعد قرب أنفها فوق وجنتيها، لا تكاد العين تلمحها إلا المدققة، شعرها الحالك مفرود بحرية يلامس مرفقه المستند به يعلوها فوق الفراش..

بطنها المنتفخ وتلك الركلات الواضحة للعين والتي تجعلها تتململ في أحلامها كل حين وآخر..

مد يده لتستكين فوقه، يهمس له بترقب حانٍ:

- بالراحة على ماما.. دي ما صدقت تنام.

ويكاد أيضًا لا يصدق ما هو فيه، الانتظار لم يعد فقط لأجل صغيره المريض بل أيضًا لأجل ذاك المختفي بأحشاء أمه، طفل آخر بملامح مشابهة ربما..

لم يعد مجرد علاج.. بل أصبح هو أيضًا غاية تستحق الانتظار..

انحنى يطبع شفتيه فوق بطنها بخفوت ثم تحرك مغادرًا الغرفة بهدوء شديد خشية إزعاجها، دلف للمطبخ بابتسامة وقبل ان يبدأ عمله أغمض عينيه:

- أنا فرحان يا وعد.. مش عارف ليه ومش قادر أمنع فرحتي، بس عارف إنك هتفرحي برده.. مش كده؟!

وبهمة ونشاط بدأ في تحضير فطور مناسب ومغذي بل وحرص على أن يكون شهيًا للحامل النائمة..

استيقظت بخمول كسول، تمطت ورمقت جوارها الفارغ بلا اهتمام، غسلت وجهها وغيرت ملابسها ثم خرجت من الغرفة ببطء، هي تخطت منتصف شهرها

السابع الآن، حركتها بدأت في التثاقل مبكرًا وقدميها تورمتا بشدة وألمهما أصبح غير محتمل.

جذبتها جلبة طفيفة قادمة من المبطخ، توجهت إليه لتقف بانشداه مصدوم على بابه، تتطلع لذلك النشيط الذي يتحرك بسرعة وإتقان، يصنع بيضًا مقليًا كما تفضله، يرص شرائح الخيار المقطعة بأناقة فوق طبق بلوري، يعدد أصناف الجبن والختام "فلافل".. عشقها الخاص، ساخنة ورائحتها لم تستطع مقاومتها بالفعل..

انتبه لها فابتسم بتحية:

- صباح الخير.

توجهت بعينيها نحوه في تبلد:



- صباح النور.. أنت بتعمل إيه؟

هزكتفيه بتبريرواضح:

- فطار.. عشانك.

وكادت تسخر لكنها أمسكت بلجام لسانها، فقرارها الأخير قبل خمسة أشهر كان التجاهل، وهي تنوي الاستمرارفيه..

- ميرسي.

وببرود توجهت نحو الطاولة في منتصف المكان، جلست فوق المقعد المقابل لها وبدأت في تناول الطعام بشهية تحت مراقبة عينيه اللامعتين، فاجأته بسؤال:

- بتبص لي كده ليه؟.. مش هتفطر؟

عاد يهز كتفيه:

- سبقتك.. ده كله عشانك، بألف هنا.

وهنا ابتسمت ساخرة رغمًا عنها، ولمحها هو ولم يعلق، يعلم ما تمر به، يعلم ما فعله، ويعلم أنها على حق.. وهو كذلك على حق..

هي معضلة دائرية التكوين، لا مهرب منها ولا مفر سوى الالتفاف اللانهائي مع منحنياتها حتى الأبد.

تدرك جيدًا نواياه، سبب اهتمامه المريب في الآونة الأخيرة، لقد اقترب الموعد.. سيأتيه طوق النجاة ليحافظ على ذكراه المتبقية من حبيبته، وللطوق يرفع القبعة ويدلل ويهتم ويعتني.. للطوق قيمة أغلى

من كل شيء، وللطوق اختناق فوق عنق قلبها المفعم بشتى أنواع المشاعر..

فقط لم يعد من ضمنها العشق.

***

"مستحيل يا وجد.. وده آخر كلام عندي"

وأشاحت بذراعيها في حنق شديد:

- يعني إيه مستحيل؟.. ده شغلي يا أكرم، أنت فاكر إني هامشي تبع أوامرك وأقعد في البيت عشان حامل في ولي العهد اللي مستنيه عشان تنقذ بيه ابنك!!

نظر إليها بذهول مستنكر:

- ما هو ابنك برده يا وجد.. وأنا مش مستنيه عشان كده بس، ده ابني برده.

وسخرت بمرارة:

- ابنك!!.. آه ما أنا عارفة، ابنك ومراتك وووو

اقترب منها بخطورة:

- قصدك إيه؟

رفعت رأسها بشموخ تجابهه بعناد:

- أنت فاهم قصدي، عارفة إن المهمة لسه ما كلمتش مادام بهي لسه ما اتعالجش، بس ما تقلقش.. هو يهمني زي ما يهمك بالظبط لأنه ابني.. ابن توأمتي اللي هي جزء مني.. من روحي.

مال نحوها ومن بين أسنانه شدد على أحرفه:

- مهمة!!.. لا مش فاهم يا وجد.. فهميني بوضوح.

وكادت تفعل، تصرخ بكل ما يعتمل داخل نفسها المجهدة، هي متعبة.. منهكة، قلبها انزوى في صمت وروحها لم تعد تحتمل.. ونقول كادت لأنها اكتفت بنظرة لائمة شجت قلبه ثم أدارت وجهها بعيدًا عنه.

أمسك بذقنها يعيد عينيها الحالكتين إليه، وبهدوء حاول بثه في نبرته قدر استطاعته:

- وجد افهميني، أنا خايف عليك.. وجيه آخر مرة قال إن حملك صعب ومحتاجة راحة، يبقى ليه العناد؟!.. هتكسبي إيه لما تتعبي نفسك وتتعبي قلبي معاكِ؟

ورددتها بحزن مستغرب:



- قلبك!!

أسقط في يده بيأس:

- أيوة يا وجد.. قلبي، أنا خايف عليكِ.

وبكت دون إرادة:

- أنت خايف عليه هو بس، ووقت.. وقت..

تعسرت ولادة الكلمات وماتت على أطراف شفتيها، هي لن تستجدي حبه، لن تخبره عن عشق كان يسكنها ونعم كان.. لن تتمنى قربه ولن ترضاه زائر أحلامها من جديد.. همس باسمها وهو يحاول ضمها إليه:

- وجد..

ودارت رأسها، بل دارت دنياها، هي بين ذراعيه بكامل إرادته، لكن ليس هذا هو سبب الدوار، بل غشاوة ظللت بصرها، ثقل حط على دماغها وسائل لزج انهمر فجأة فوق ساقيها وهي تسقط أرضًا بتمتمة ضعيفة:

- أكرم.. الحقني.

أسرع يحتضها ليحمي جسدها من السقوط..

لم تسمع صرخته الملتاعة باسمها، لم تلمح نظراته المرتعبة على نزيفها الذي أغرقها.. ولم تشعر بنبضات قلبه التي أصابها الجنون.

(٧)

القلوب مهما قست أو انعزلت أو حتى أغلقت أبوابها في وجه كل شعور لاتزال بعدها هشة.. واهنة تستجيب لأول طرقة وجع..

ووجعه هو أكبر مما يمكن أن يستوعبه عقله!!..

سيفقدها.. ستضيع منه، وهذه المرة ستكون نهائية وحاسمة لا حياة بعدها..

كان يقف مرتعبًا يروح ويجيء أمام غرفة العمليات التي أدخلوها إليها فور وصولهم للمشفى.. بصحبة

أخيها وزوجته البادي عليها قلق لا محدود وهي تنظر لوجه زوجها المحتقن.

لقد رفض أن يكون معها.. يشعر بخوف لا يمكنه السيطرة عليه، كأنه لو ذهب إليها وانتهت بين يديه فسينتهي معها..

الأمر خطر، والبدايات غير مبشرة بنهاية تريح القلوب..

خرج إليهم طبيبها بملامح واجمة، استقبله الكل بفزع كامن لم يحن وقت إظهاره بعد، عاجله "أكرم" بتساؤل شاحب:

- خيريا دكتور!!

تأمله الرجل للحظة قبل أن يريحه بجواب غير كاف:

- الحالة حرجة للأسف.. نزيف شديد وبصعوبة أنقذنا الجنين...

قاطعه بلهفة قلقة:

- وهي؟!

نظر إليه بتأكيد بارد:

- هي دخلت في غيبوبة.

تراجع خطوة كأنما نال دفعة عنيفة في صدره، وشقيقها يسترجع بألم:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

ربتت زوجته على كتفه تواسيه وتواسي نفسها معها، والزوج المكلوم يستند للجدار بقلب منقبض.. لم

يشعر بدمعة ساخنة تغادر جفنيه تبكيها، لم يدرك أن خافقه يناديها، لم يفهم أن هناك نبضة ولدت وماتت وتبعتها أخرى وأخريات لأجلها هي..

كل ما أصبح يصول ويجول بداخله كان ألمًا ممتزجًا بألم أكبر حد فقدان الشعور والحس والقدرة على الفهم والإدراك..

انزلق فوق الجدار والطبيب يكمل كأنما يأتيه صوته من بئر سحيق:

- الغيبوبة غالبًا بسبب النزيف المفاجئ.. الولادة في السابع كمان أثرت على الجنين فهيفضل في الحضانة فترة.. ربنا معاكم.

بقيت بغرفة الرعاية الفائقة لأكثر من أسبوع كان يتسلل إليها خلاله برشوة الممرضة المسئولة.. رشوة ضعف وحزن مرتسم على وجهه جعلها ترضخ لذاك الوهن والشجن فتمنحه بعض الوقت مع حبيبته..

نعم هي حبيبته، هي كل شيء، هي الحاضر والغد وأم طفليه وإن لم يكن كلاهما منها.. هي التي تملكته دون أن يدري رغم قسوته وجموده معها.. هي التي يريدها حتى الممات ودون أن يعلم متى أو كيف!!..

يجاور فراش مرضها فوق مقعد، يحتضن كفها بين أصابعه الدافئة.. يهمس في أذنها باعتذاراته.. فلولا نبضات الخوف تلك لما علم أن هناك قلب بصدره لايزال ينبض.. يحب ويعشق، لايزال على قيد الحياة، بينما هو على حماقته لا يفهم..

وليتها تسمعه.. ليتها تعود.. بل ليت الأمنيات تتجسد في واقع مليء بأشواك الحزن ومرار الوجع..

***

هل يمكن أن تشرق الشمس قبل الفجر!!..

يلمع ضوءها فينير السماء ونشعر بدفئها داخل أجساد جمدها صقيع الذكريات الموجعة!!..

هل يمكن أن نبتهل ويجاب الابتهال قبل حتى أن تجاورنا أيدينا المرفوعة نحو السماء بتوسل!!..

والجواب هو: نعم..

نعم واضحة وصريحة، لقد استيقظت.. عادت مستجيبة لنداءاته والخالق الودود ضمد جرح قلبه

النازف بقدر يجمعهما من جديد.. عادت قبل فجر اليوم العاشر بساعة وهو ساهر إلى جوارها..

طرفت بعينيها دون وعي لتسمع همسته المتلهفة باسمها ففرقت جفنيها تتأمل وجهه المليء بندوب الحزن.. تستعيد ذكرى اللحظات التي سقطت فيها فوق صدره قبل أن تحاول الاعتدال برعب:

- ابني!!

أعادها لفراشها بتربيتة حنون مطمئنة:

- ما تخافيش.. الحمد لله كويس.. المهم أنتِ ارتاحي على ما أنادي الدكتور يطمني عليكِ.

نظرت إليه باستغراب فابتسم لعينيها بحب لم تشترِ منه لمحة أو تصدقها:

- رعبتيني عليكِ.

وتحول الاستغراب لشبه ذهول فجاورها بتفهم، يمسك بأناملها، يطبع فوقها قبلة تستشعرها لأول مرة بهذه الطريقة:

- أيوة رعبتيني.. عاوزة تسيبيني يا وجد؟

وتبًا لضعف قلب بين يدي معشوق يتلاعب به كيف شاء.. فمتى شده انجذب ومتى نفر منه خرَّ تحت قدميه كأنه استعباد..

ظلت تتأمله قبل أن تهرب بعينيها تحاول التلاهي عما تقرأه على وجهه وبين أهدابه الطويلة من قلق لا تريد تصديقه:

- ابني فين؟

قبل جبينها بمفاجأة:

- في الحضّانة.. بقى أحسن الحمد لله، ماتنسيش إنه اتولد في السابع.

ابتعدت تنظر إليه دون شعور محدد، أشاحت بوجهها تقرر بأمر لا يملك أمامه إلا التنفيذ:

- عاوزة أشوفه..

***

أم لأول مرة..

إحساس لا حرم الله كل امرأة منه..

وقفت أمام زجاج الغرفة الخاصة بالمواليد، تتابعه في فراشه يحرك ساقيه، ذراعاه الصغيرتان تتلاعبان في

الهواء دون هدف.. أنفه المنمنمة وفمه الصغير وتثاؤب ناعم وثب له قلبها بين ضلوعها..

ودت لو استطاعت حمله، تقبيله لكن الأمر صعب، عادت لغرفتها تستند إليه، تتجاهله وعقلها يدور في دوامة مليئة بالمخاوف..

هل سيتحمل صغيرها عملية النقل التي يحتاجها أخيه؟.. هل يمكنها أن تجازف بنعمة قاست لتصل إلى أحضانها؟.. ماذا لو تأذى؟.. ماذا لو فقدته!!..

انقبض قلبها في هذه اللحظة وظهر الوجوم على ملامحها..

وكان هو يتابع كل تلك الأفكار الظاهرة بوضوح على صفحة وجهها النقية، يعلم ما تفكر به ولا يملك أمامه خيارًا أو قرارًا:

- أنا خايفة.

تمتمت بها لنفسها ربما، لكنه جاوبها بعد لحظة صمت:

- وأنا كمان خايف.. خايف عليك وعلى ولادي.. مش عاوز أخسر حد فيكم.

وجلس في مواجهتها:

- أنا عارف إنك بتراجعي نفسك.. بعد التعب، في حالة الضعف والقلق، ابنك مهما كان، يا ترى أكمل ولا لأ.. ياترى هيكون في أمان وابني هيبقى كويس ولا لأ!!..

وهزرأسه بنفي لا معنى له:

- أنا مش هاخد القرارعنك يا وجد.. الاتنين ولادي وده قدري وراضي بيه..

همست بدمعة:

- أنت كده بتصعبها عليَّ.

ابتسم بحزن:

- أنا باحاول ما أضغطش عليك..

صمتت، طال صمتها واستراحت فوق وسادتها حتى ظنها راحت في النوم حين فاجأته:

- لازم بهي يتعالج.. شوف الوقت المناسب وخلي الدكتور يعمل الفحوصات اللازمة عشان ابن وعد يعيش.

نظر إليها بدهشة، واستغرب التسمية لكنها أردفت بحزن أصبح سمت نبرتها على الدوام:

- وعد لازم تفضل موجودة معانا.. مش هاقدر أسيب آخر حاجة منها تختفي من الوجود وبإيدي أنقذها.

ثم أدارت وجهها إليه بحزم تحسم به موقف قلبها منه وحياتها معه:

- وبعد العملية ما تنجح وبهي يرجع لنا.. تطلقني.

الخاتمة

"وجد ارحميه بقى"

ابتسمت بحالمية عادت لوجهها المتورد فأكملت "سها" بمكر:

- هيتجنن برا وكل يوم حجة شكل عشان يشوفك.

هزت كتفيها بدلال عاشقة:

- هو السبب يا سها، حد قاله يطلقني أول ما طلبت منه!!

وكزتها في كتفها بغيظ:

- ماهو كان بينفذ رغبتك، مش حاول معاكِ وأنت رفضتِ وصممتِ.. ومن يومها وهو كل يوم عندنا في البيت.. مرة خدي بهي بيعيط عشانك، مرة عاوز أشوف عليّ أصله وحشني، ومرة عاوز أخرج الولاد ومرة جاي أشوف وجيه، مش ناقص غير يجي يشوف مرات وجيه.. والورد اللي مغرق البيت ولا الشيكولاتة السويسري اللي مش عارفة بيجيبها إزاي!!.. ولا حتى عرف بحبك ليها منين؟.. اطلعي له بقى.

أغمضت عينيها وابتسامتها تتسع.. تفكر في الشهرين ونصف الماضيين، عدتها شارفت على الانتهاء وفي الشهر الأخير زارها يوميًا يطالب بها وهي ترفض.. تتمنع.. تتدلل، وتعشق في صمت أنثى خانعة لسلطان القلب ولا مفر..

***

احتواها بعينيه في ثوان، كان يتأملها من خصلاتها الطويلة التي باتت شغفه المجنون إلى قدميها الصغيرتين في حذائها المفتوح.. واقترب بخطوة واسعة يهمس بوجد:

- وحشتيني.

أدارت ظهرها إليه تخفي عينيها والحنين فيهما عنه:

- عاوز إيه يا أكرم؟

لف حولها وتمسك بكفيها رغمًا عنها:

- عاوز وجد قلبي.

رمقته بحزن أوجعه فاستطرد:

- كفاية بقى، أنا نفذت لك رغبتك.. سيبتك على راحتك، ارحميني وارحمي قلبي.

هزت رأسها بحيرة:

- ليه؟!

وجاوب بسرعة كأنما يحضر الكلمات منذ دهر:

- مش هاقول عشان بحبك.. كلمة مستهلكة وقديمة ومش كفاية أبدًا.. بس أنت رجعتيني للحياة، أنتِ الروح اللي رجعت النبض لقلبي اللي مات.. يعني ببساطة من غيرك أموت.

واقترب أكثر بهمس حميمي دافئ:

- أنت بشعرك الطويل اللي درجة لونه بتختلف حسب الضوء، النمش القليل قوي على خدودك واللي ما

ياخدش باله غير اللي يقرب منك ويحفظ تفاصيلك.. بالخطين اللي جنب عينيك لما تضحكي ومشروع الغمازة الفاشل لما الضحكة توسع.

وابتسم وضعفت.. تبًا لها، ضعفت.. بوهن عادت تسأل:

- برده جزء من ذكرى؟

وسارع بحب واضح:

- لأ.. كل بكرة.

استكانت عيناها لدفء عينيه بل استكانت روحها له وملَّكته من قلبها الذي لم يفقد سلطانه عليه ولو لحظة مهما عاندت أو إدعت أو حتى تظاهرت بعشق قد رحل، وهو ساكن فيه أبد الدهر.

تمت بحمد الله

٢٠١٦/٧/١٠

صابرين الديب

حلم - هن